

بندلي جوزي

١٨٧١ - ١٩٤٢

يجمع الباحثون في التراث العربي ان بندلي جوزي، المفكر الفلسطيني المعروف عند الخاصة من الباحثين والمجهول عند الكثرة من مثقفينا، هو أحد رواد البحث العلمي في التراث. أي أنه مختلف في منهجه في البحث عن كثيرين ممن أصبحوا أعلاماً في هذا الميدان الصعب. واختلف في منهجه العلمي هذا عن الكثيرين من المستشرقين والمستعربين، وانتقد بجرأة بعض مواقفهم المتعسفة من التراث العربي، مشيداً، في الوقت عينه، بأخرين من كبار المستشرقين والمستعربين الذين تميزوا باجتهاداتهم، وأسهموا، من خلالها في إلقاء أضواء كاشفة على بعض كنوز هذا التراث.

ورغم أن بندلي جوزي كان قليل الإنتاج، إلا أن هذا القليل من أبحاثه كان شديد التميز، من دون أن يعني ذلك بالضرورة أن على القارئ أن يتبنى كل أفكاره وكل استنتاجاته. ذلك أن أهمية البحث في ميدان من ميادين المعرفة، لا سيما إذا كان هذا الميدان صعب الولوج، إنما تكمن في الجهد الذي يبذله الباحث، وفي المنهج الذي يسلكه في بحثه. هنا، بالتحديد، مصدر التميز في أبحاث بندلي جوزي، سواء في قراءته لبعض الأحداث الكبرى في التاريخ العربي القديم، الفكري منها والإجتماعي والسياسي، أم في قراءته لطبيعة الإقتصاد في زمن الدولة الإسلامية في عصورها المختلفة، أم في قراءته لفقهاء اللغة العربية ولعناصر التطور والتخلف فيها.

فمن هو بندلي جوزي؟

إنه بندلي جوزي صليبا. وهو اسمه الكامل. وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ميلاده وفي تحديد تاريخ وفاته. لكن القليلين هم الذين أشاروا إلى نشأته وذكروا أنه فلسطيني من مواليد مدينة القدس، على الأغلب. إلا أن السائد في تحديد تاريخ ميلاده هو أنه ولد في عام ١٨٧١ وأنه توفي في عام ١٩٤٢. لكن الجزء الأكبر من حياته قضاها في روسيا، القيصرية ثم السوفيياتية، (ما يقرب من أربعين عاماً) في الدراسة أولاً كطالب، ثم في التعليم كأستاذ، ثم كباحث في التراث واللغة وفي قضايا اقتصادية واجتماعية وتاريخية. تلقى علومه في كلية المصلبية (أو دير المصلبية) اليونانية الأرثوذكسية

في فلسطين، ثم في مدرسة كفتين بالقرب من طرابلس في لبنان. ومعروف أن المدارس الأرثوذكسية الروسية كانت منتشرة في أواخر القرن التاسع عشر وفي الربع الأول من القرن العشرين في مدن لبنان وفلسطين، وأن الكثير من الأساتذة الروس كانوا يمارسون التدريس فيها. وقد التحق بتلك المدارس عدد كبير من الطلاب الذين صاروا أعلاماً في الثقافة العربية، والذين تابعوا دراستهم العليا في روسيا. وكان من أبرز أولئك الطلاب ميخائيل نعيمة وبندي جوزي. ويؤكد هذا الأمر المستشرق الروسي كراتشوفسكي، الذي تعرّف إليه كل من بندي جوزي وميخائيل نعيمة، وأقاما علاقة صداقة معه.

يقول المؤرخون إن بندي جوزي سافر إلى روسيا لمتابعة دراسته في مدينة قازان. وفي جامعة قازان حصل على الدكتوراه. وكان ذلك في عام ١٨٩٩. وكان موضوع بحثه المعتزلة. وقد مكنته معرفته الجيدة باللغتين العربية والروسية من تأليف قاموس عربي روسي لتعليم اللغة الروسية لأولاد العرب المقيمين في روسيا أو الراغبين في تعلمها خارج روسيا. وعمل أستاذاً للآداب العربية في جامعة قازان بعد تخرجه.

كان مهتماً باللغة منذ بدايات تخرجه من الجامعة. وتناولت أبحاثه اللاحقة فقه اللغة العربية ومصادر مفرداتها وعلاقتها باللغات الأخرى. ساعده في أبحاثه تلك أنه كان يتقن عدة لغات هي: السريانية والعبرية واليونانية والفرنسية والإنجليزية والروسية والألمانية. وبعد ثورة أكتوبر عين أستاذاً للأدب العربي في جامعة باكو، ثم عين رئيساً لجامعة قازان.

ورغم أن إقامة بندي في الإتحاد السوفياتي كانت طويلة إلى الحد الذي اعتبره بعض المؤرخين مستشرقاً روسياً، إلا أنه لم ينقطع عن علاقته بوطنه فلسطين، وبالبلدان العربية الأخرى، لا سيما مصر ولبنان. وقد زار فلسطين ولبنان ومصر ثلاث مرات في أعوام ١٩٠٩ و ١٩٢٨ و ١٩٣٠. وتعرّف في إحدى زيارته تلك في بيروت عام ١٩٠٩ إلى المستشرق الروسي - السوفياتي كراتشوفسكي، وكتب عنه وعن أعماله بحثاً في مجلة "المقتطف" المصرية في عام ١٩٣١. وكان يقوم بإلقاء المحاضرات في كل

المدن التي زارها. وكان يلقي الإهتمام من منقفيها. وقد نشر الكثير من أبحاثه في مجلات "الهلال" و"المقتطف" و"النفايس المصرية"، وفي المجلة العلمية التي كانت تصدر عن الجامعة الأميركية في بيروت. وأشرف، خلال زيارته إلى القدس في عام ١٩٢٨، على إصدار أهم كتبه "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام". ثم صدر له فيما بعد كتاب آخر هو "دراسات في اللغة والتاريخ الإقتصادي والإجتماعي عند العرب". كما اشترك مع صديقه قسطنطين زريق في ترجمة كتاب المستشرق الألماني نولدكه عن أمراء غسان. وظل يتابع من باكو ومن قازان في الإتحاد السوفياتي صلته بالمراسلة مع أصدقائه في فلسطين ولبنان ومصر. وكان يعرف من خلالهم الأحداث التي كانت تحفل بها بلاده في تلك الحقبة من تاريخها المضطرب.

تابع بندلي جوزي أبحاثه في التراث العربي وفي اللغة وفي التاريخ الإقتصادي والإجتماعي، وفي ميادين أخرى، خلال وجوده في حقبتين من تاريخ روسيا، الحقبة القيصرية والحقبة السوفياتية. إلا أن إبداعه الحقيقي تم في الحقبة السوفياتية. إذ كان قد نضج، ونضجت أفكاره، واتسعت معارفه. وتدل كتاباته في تلك الحقبة على أنه تأثر بالفكر الإشتراكي، وصار منهجه في البحث أقرب إلى المنهج الماركسي، من دون أن يترك ذلك المنهج أي تأثير أيديولوجي على طبيعة أبحاثه. إذ كان همه هو إيصال آرائه واستنتاجاته الخاصة بالتراث وباللغة وبالتاريخ إلى القراء العرب والسوفييت والأجانب، بخلاف ما كان قد برز في كتابات بعض المستشرقين، الذين انتقدهم وانتقد خصوصاً الطابع الأيديولوجي المعادي للعرب ولتراثهم الذي ساد أبحاثهم. لنقرأ هنا بعض ما جاء في مقدمة الطبعة الأولى لكتابه "من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام" في نقد مواقف وآراء بعض المؤرخين الغربيين حول تاريخ الشرق. يقول جوزي في مطلع هذه المقدمة:

"إذا نحن عرفنا أن أول من وضع مبادئ علم التاريخ وأساليب الانتقاد التاريخي هم مؤرخو الغرب كنيبور (Niebhur) ورائكه (Ranke) وشلوسر (Schlosser) وغيرهم، وإن هؤلاء المؤرخين بنوا أحكامهم ونظرياتهم على تاريخ الغرب وحده، إذ لم يكونوا يعرفون من تاريخ الشرق إلا الشيء اليسير، سهل علينا والحالة هذه أن ندرك مقدار ما في أقوال بعض مؤرخي الغرب عن الشرق وتاريخه من الغرابة والطيش. فهل من طيش أكبر من أن يقول أحدهم "أنه لم يكن ولن يكون للأمم الشرقية تاريخ بمعنى هذه الكلمة المعروف بين علماء أوروبا، وإن أساليب البحث التاريخي التي وضعها علماء الغرب لا يمكن أن تطبق على تاريخ الشرق". وأية غرابة أو بالأحرى أي جهل أعظم من أن يقال إن العوامل المؤثرة في تاريخ الأمم الأوروبية والنواميس العمومية الفاعلة في حياتهم الاجتماعية هي غير العوامل والنواميس العاملة في تاريخ الأمم الشرقية وحياتهم وثقافتهم".

وكتاب بندلي جوزي المشار إليه هو، في نظري وفي نظر الكثيرين، أهم كتبه، والأبحاث التاريخية فيه هي أهم أبحاثه على الإطلاق. أقول ذلك من دون أن أقلل من أهمية أبحاثه في فقه اللغة العربية وفي تأثيرها باللغات الأخرى وتأثيرها في تلك اللغات.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب أود أن أدخل في بعض فصوله، بهدف تعريف القارئ بالقيمة التاريخية لأبحاث مؤلفه. وأستشهد في تأكيد موقفي هذا برأي المفكر التراثي حسين مروّة، في المقدمة التي وضعها للكتاب في طبعته الثالثة الصادرة في عام ١٩٨١. يقول مروّة: "إذا رجعنا نصف قرن ونيفاً إلى الإطار الزمني الذي كان يكتب فيه بندلي جوزي دراساته عن هذا التراث، بطريقته المنهجية الجديدة البكر، تيسر لنا أن نستوعب القيمة التاريخية الريادية لتلك الدراسات. فهي قيمة باهرة حقا وفق هذا المقياس، أي مقياس الزمن التاريخي نفسه الذي صدرت فيه دراسات بندلي جوزي عن الحركات الفكرية في الإسلام، وعن التاريخ الإقتصادي والاجتماعي عند العرب، ودراساته في اللغة وفلسفة اللغة. وفي ظني أن الرجل كان المتفرد بين الباحثين العرب حينذاك من حيث شمولية الرؤية، فضلا عن تفرد من حيث منهجية

المعالجة. ففي حين كانت وحدانية الجانب تسود رؤية معظم هؤلاء الباحثين، كان بندلي جوزي يحيط بموضوعه من كل جوانبه، لا يتناول جانباً على حساب جانب آخر، رغم كونه منحازاً إلى هذا أو ذاك من جوانب المسألة التي يعالج. فإن انحيازه الفكري، وربما الأيديولوجي _ ولا أجزم _ إلى حركة القرامطة، مثلاً، كحركة فكرية أولاً، وكحركة اجتماعية ثانياً، لم يكن (هذا الانحياز) ليحجب عنه رؤية المواقف المتناقضة ورؤية الزوايا غير المضيئة لهذه الحركة، أو ليعلن قياداتها، أو بعض الجيوب المتقوية في هيكلتها..".

يقع الكتاب في خمسة فصول. يبدأها جوزي بفصل عن الأسس الاقتصادية للإسلام، تليها الفصول التالية: الإمبراطورية العربية والأمم المغلوبة، حركة بابك الخرمي وتعاليمه الإشتراكية، الإسماعيلية، القرامطة. وتلي الفصول الخمسة خاتمة. لكن المؤلف يحرص على أن يقدم في الفصل الأول من كتابه صورة عن الإسلام مختلفة عن الصورة السائدة. إذ هو لا يعتبر الإسلام ديناً وحسب، بل هو رسالة اقتصادية واجتماعية. يقول: "فقد أصبح اليوم من المقرر أن الإسلام، كغيره من الأديان الكبيرة، ليس فقط فكرة دينية، بل مسألة اقتصادية واجتماعية معاً، أو بالأحرى هو مسألة اقتصادية واجتماعية أكثر منه فكرة دينية... ومن فضل مؤسس الدين الإسلامي ومظاهر عبقريته أنه أدرك مصدر الحركة الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت في أيامه في مكة، عاصمة الحجاز، وعرف كيف يستفيد منها ويسخرها لأغراضه السامية، دينية كانت أو إجتماعية."

أهمية هذا الإستهلال في الكتاب أن بندلي جوزي يقدم فيه للقارئ الشروط التي سمحت له بأن يستخدم في تحليله للحركات الفكرية في الإسلام منهجه الماركسي الجدلي في قراءة المسار العام لحركة التاريخ، وفي تحديد موقع الأحداث التي جرت في الحقب المختلفة لهذا التاريخ. وقد قاده منهجه هذا الى اعتبار أن حركة بابك الخرمي السياسية والاجتماعية التي ناهض بها الخلافة العباسية، وكذلك حركة

الإسماعيلية ووريتها حركة القرامطة، اعتبارها جميعها حركات فكرية واجتماعية تحمل بذوراً إشتراكية تاريخية لزمن قديم.

وفي تحليله لحركة بابك الخرمي الفارسي يرى بندلي جوزي "أنها تختلف عن غيرها من الحركات الثورية السابقة بأمرين خطيرين: تنظيم الحركة ثم الغاية التي كانت ترمي إليها. أما تنظيم الحركة فيظهر أولاً في نجاحها وسرعة انتشارها وثبات أصحابها أمام عدوهم، ثم في إقبال الناس عليها إقبالا غريبا لم نعهده في تاريخ غيرها، واشتراك عدد كبير من الأمم المجاورة لبلاد الفرس من أكرد وأرمن وروم وغيرهم من قبائل ما وراء القوقاس الصغيرة اشتراكا فعليا يدل على اتفاق سابق وشعور قوي بالمصلحة العامة." ثم يتساءل عن الأسباب التي حببت إلى تلك الطبقات والأمم المغلوبة الدخول في الدعوة البابكية. ويجيب عن تساؤله، استناداً إلى ما كتبه المؤرخون المسلمون عن حركة بابك، فيقول: "إن أهم العوامل التي ساعدت على نشر دعوته بين الطبقات والأمم المذكورة لم تكن دينية، ولا سياسية، بل هي كانت إجتماعية واقتصادية. تؤكد ذلك أفعال بابك وأشياعه يوم كانت القوة في أيديهم، ثم برنامجهم الذي لا نجد فيه أثرا للعوامل الدينية والسياسية." وهو يميل إلى الاعتقاد "بأن الغرض من الحركة البابكية لم يكن مقاومة الإسلام وذويه، ولا مقاومة العرب كأمة قائمة منتصبة، كما كانت الحال في الحركات السابقة على حركة بابك في بلاد العجم، بل محاربة ذلك النظام الإجتماعي الذي كانت تنهت تحتها الطبقات السفلى من جميع الأمم التي كانت تتألف منها وقتئذ دولة بني العباس، بما في ذلك الأمة العربية نفسها دون أن يشترك أبناء هذه الأمة فعلا في الثورة البابكية. ذلك أن بابك وأتباعه كانوا يرمون إلى هدم ذلك النظام المستند إلى أصحاب الأملاك (الدهاقين) ورؤساء الدين والجيوش المسخرة المأجورة، وإبداله بنظام جديد ليس فيه طبقات، ولا نزاع مستمر بينها، ولا ظالم ومظلوم، ولا غني وفقير، ولا سيد وعبد، ولا كبير وصغير، إبداله بنظام مبني على العدل والإخاء والمساواة."

يتابع بندلي جوزي تحليله للظاهرة البابكية فيؤكد ما سبق أن قاله "بأن بروغرام بابك ومازيار وسائر اشتراكيي أذربيجان وطبرستان كان يحتوي على مسائل اجتماعية واقتصادية فقط، يكمن جوهره في مسألتين أساسيتين هما: ١- نزع الأراضي الواسعة من أربابها الذين اغتصبوها سابقا من الفلاحين أو الدولة، وتوزيعها مجانا على المزارعين المحتاجين إليها. ٢- تحرير المرأة الشرقية، الإيرانية على الأقل، من عبوديتها الأبدية، وإعطاؤها أهم ما للرجل من حقوق."

وإذ يعتبر الكاتب أن الإسماعيلية - وهي في أصولها وجذورها تعود إلى الشيعة العلوية كما يقول - هي استكمال في المسألة الاجتماعية لبرنامج بابك الخرمي، فإنه يرى اختلافاً بينها وبين البابكية في الأهداف السياسية والدينية. لكنه يعتبر القرامطة جزءاً متفرعاً من الإسماعيلية ومكماً لها، لكن في ظروف وفي أشكال وفي أغراض مختلفة. ولعل الحركة القرمطية، في نظر الكاتب وفي نظر كثيرين، هي الأكثر وضوحاً في برنامجها الاجتماعي، والأكثر ثباتاً واستقراراً، والأكثر اتساعاً في حركتها في مواجهة الخلافة العباسية. إذ هي استطاعت أن تقيم لها نظاماً سياسياً ودولة وجيشاً، وأن تضع برنامجاً اقتصادياً اجتماعياً لعله الأكثر وضوحاً بين تلك الحركات. ومعروف تاريخياً أن البحرين وعمان كانتا من المراكز الأساسية لدولة القرامطة، التي أقاموا فيها نظامهم قبل أن يتم سحق هذه الدولة من قبل جيش الخلافة بعد سنين طويلة من الحروب. ويقول جوزي، في شرح برنامج القرامطة، على لسان أحد المؤرخين " أن حماداً (زعيم القرامطة)، بعد أن بنى "دار الهجرة" ورتب أمورها، عرض على من أحب ممن دخل في دعوته أن يؤدي ضريبة أخرى سماها "البلفة". وهي ضريبة خاصة كان يؤديها كل من أراد أن يشترك في "عشاء المحبة" (Agapi)، أي أن يأكل من "خبز الجنة"، أو كما سماه حماد نفسه "غذاء أهل الجنة" الذي كان يأتيه من إمام الزمان تَوْأ. وزاد بعض الكتبة أن حماداً، بعد أن وضع على أصحابه "البلفة"، دعاهم أن يؤديوا لدار الهجرة خمس ما كانوا يملكون أو يكتسبون، فلبوا دعوته راضين، ثم قدروا أملاكهم ودفَعوا عنها الخمس فرحين، حتى كنت ترى المرأة تقدم للداعي خمس غزلها، والفاعل

خمس أجرته. فكانت هذه الضريبة قسطاً يدفعه الشخص إلى صندوق الأخوية. إلا أن حماداً لم يكتفِ بهذه الضرائب، بل أمر أهل القرى التي دخلت في دينه أن يحملوا إلى محل واحد كل ما يملكون. فلما جمعه جعله مشاعاً بين الأعضاء يتولى توزيعه رجل منهم ذو ثقة. فكان يجمع ما يحضره الأعضاء من أثاثٍ وحليٍّ وثيابٍ ومأكولاتٍ ومالٍ، ثم يوزعه على المحتاجين من القرامطة. حتى لم يبق بينهم فقير. فكننت ترى الرجال منهم يشتغلون برغبة ونشاط، والنساء يحملن إلى "بيت الجماعة" ما كنَّ يكسبونه من المال، حتى أن الأولاد الصغار أنفسهم كانوا يقدمون إلى مدير البيت ما كانوا يأخذونه من الجعالة من أصحاب البساتين التي كانوا يحرسونها في النهار ويطيرون الطير عن أشجارها وبقولها، حتى لم يعد أحد يملك لنفسه إلا سيفه وسلاحه".

هذه الإشارات التي قدمتها حول كتاب "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام" تبين بوضوح منهج بندلي جوزي في قراءة التاريخ وفي تحليل أحداثه. وهو منهج ماركسي يقوم على قاعدة المادية التاريخية. ورغم أهمية البحث والتحليل اللذين استند إليهما الكاتب، واللذين قدمنا نماذج منهما، فإن السؤال الذي يمكن أن يطرح اليوم هو بالتحديد: ما مدى دقة هذا المنهج في قراءة ذلك التاريخ القديم وأحداثه؟ وهو سؤال لا جواب عندي بشأنه. علماً بأنه كسؤال مشروع لا يقلل مقدار ذرة من الطابع الريادي في أبحاث بندلي جوزي التاريخية المتصلة بتلك الحقبة من تاريخ الإسلام.

غير أن لبندلي جوزي كتاباً آخرًا لا يقل أهمية عن الكتاب الذي توقعنا عنده في السطور السابقة، هو الكتاب الذي ضمّ عدداً من أبحاثه ودراساته التاريخية والإقتصادية واللغوية. وقد عمل على جمعها والتقديم لها كل من ناجي علوش وجلال السيد. وصدرت هذه الدراسات في كتاب عن دار الطليعة في عام ١٩٧٧. تشير بعض فصول الكتاب إلى استمرار اهتمام بندلي جوزي بالتاريخ الإقتصادي والإجتماعي للإسلام. فهو يقدم أبحاثاً جريئة حول الخراج في الإسلام، وحول السياسة الإقتصادية للخلفاء. ويتوقف عند الأمويين في عدة فصول. ويفرد ثلاثة فصول لمسيمة الكذاب. ولا أرى ضرورة

للخوض في كل من هذه الدراسات، لأن المهم، من وجهة نظري، في ما رمى إليه بندلي جوزي في مجمل كتاباته حول تاريخ الإسلام، لا يتصل بالجانب الديني في الإسلام بقدر ما يتصل بالجانب الإقتصادي والإجتماعي. وهو ما ظهر بوضوح في كتابه الأصلي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام" الذي عرضنا له في مطلع هذا البحث.

أما اهتمام جوزي باللغة، وبفقهها وبمظاهرها التقدم والتخلف فيها، فهو موجه إلى أصحاب الإختصاص في الدرجة الأولى. وهو لذلك يدخل في أبحاثه اللغوية تلك في سجال مع لغويين معروفين، فيختلف معهم في أمور، ويدقق لغوياً وتاريخياً في أمور أخرى تتصل خصوصاً بجذور الكلمات العربية وبأصولها. وهو يؤكد في بحث بعنوان "مواد لغوية" حاجة اللغة العربية إلى وضع معجم كبير، بالإشتراك مع علماء اللغة من المستشرقين الذين سبقونا إلى البحث في فلسفة لغتنا وفي أصولها. وهو يقترح على علماء اللغة العرب الإستعداد للإشتراك مع المستشرقين في وضع هذا المعجم، ويدعوهم إلى الإهتمام بالأمور التالية:

- جمع مواد لغوية معجمية جديدة ربما لم ينتبه إليها جامعو أوسع وأقدم معاجمنا.
- البحث عما وقع سهواً أو جهلاً في معاجمنا القديمة والحديثة.
- البحث في تاريخ اصطلاحاتنا العلمية والفنية والدينية وسواها وزمن ظهورها في اللغة العربية.
- البحث والتدقيق في أسماء كثير من الحيوانات والحشرات والأسماك والطيور والنبات وغير ذلك مما اقتصر، ولا تزال تقتصر، معاجمنا في تعريفه على قولها : نوع من كذا وكذا إلخ..
- البحث عن الألفاظ الدخيلة في العربية وطرق وزمن انتقالها إلى لغتنا.
- بيان عما دخل في معاجمنا القديمة عند جمعها من اللهجات ولغات القبائل.

ويقول الكاتب في بحث آخر في الكتاب بعنوان "صفحات من تاريخ التمدن عند العرب : المفردات اللاتينية في اللغة العربية": "كان وما يزال بعض الناس يظن أن جزيرة العرب قبل الإسلام كادت تكون عالماً مستقلاً لا علاقة لها تذكر بالأمم المجاورة لها، وأنها لم تتأثر بالثقافة الأجنبية، ولم تؤثر فيها إلا في أشياء وأحوال محصورة، وذلك لقلّة الروابط بينها وبين سائر الأمم المتحضرة القديمة، وصعوبة المواصلات الناتجة عن فقد الأمن في البلاد العربية، ووعوثة الطرق، ولقلة ما كانت تصدره البلاد العربية من البضائع، ولبعد المسافة بين أسواقها الداخلية وأسواق البلاد المجاورة لها. إلا أن البحوث العلمية الأخيرة عن تاريخ العرب قبل الإسلام والآثار التي عثروا عليها في بلاد اليمن وغيرها دلت على أن الأمر على عكس ما يظن من اعتزال جزيرة العرب عن الحركة التجارية العالمية التي هي أعظم عوامل التعارف والتقارب بين الأمم مهما بعدت بلادها وتعددت صعوبات الوصول إليها. فقد تبين من بحوث العلماء أنه كانت لجزيرة العرب علاقات تجارية عمرانية وتاريخية دائمة مع سائر الأمم المجاورة لها، بل بعض البلاد البعيدة عنها كالهند. فقد كانت تأتيها البضائع من بلاد العجم وما بين النهرين والولايات البيزنطية. وكنت ترى في أسواقها السنوية ولا سيما سوق عكاظ تجارا وغير تجار من البلاد المذكورة. والقرآن نفسه يشهد أنه كان لتجار مكة رحلتان في الصيف والشتاء، إحداهما إلى سورية وفلسطين والأخرى إلى جنوب جزيرة العرب، فضلا عن رحلات تجارية أخرى. أما الأفراد الذين كانوا يأتون البلاد العربية لغير التجارة كالهرب من الاضطهادات الدينية التي كان يثيرها عليهم رجال الدين والملك، أو كطلب الرزق، فأمرهم معروف. كما أن بعض سكان مكة وغيرها قبيل الإسلام ساحوا في الولايات البيزنطية الشرقية، بل زاروا عاصمتها ليقنّبسوا من الثقافة اليونانية والرومانية ويقفوا فيها على الحركة الدينية التي كان يبلغهم صداها." وفي الكتاب فصول أخرى تستحق التوقف عندها بعمق.

ورغم أن كتابات بندلي جوزي كانت قليلة فإن ما نشر منها، وما تضمنته الكتب التي توقفت عندها، يشير إلى أهمية هذا المفكر الفلسطيني وإلى دوره الريادي في البحث العلمي الجريء في تاريخ

العرب القديم، السياسي والإقتصادي والإجتماعي والثقافي، بما في ذلك بحثه في اللغة وفي فقهها وأصولها.